كان ذلك قرار دانكن، ولم ينفع كلام هوكاي معه ليجعله يعدل عن قراره. قال له: «يمكنني أن أذهب متنكرًا وأنقذ أليس، فيما تنقذ أنت كورا. قضي الأمر.»

قال هوكاي: «حسنًا، اجلس فوق تلك الصخرة، وسيساعدك تشينجاتشجوك.»

بعد أن تنكر دانكن جيدًا تحدث مع هوكاي مرة أخرى. راجعا معًا الإشارات التنبيهية وحددا مكانًا ليلتقيا فيه ما إن يتمكن دانكن من إنقاذ أليس.

وأثناء رحيله جذبه هوكاي جانبًا وأخبره أنه سيحرص على سلامة الجنرال مونرو قبل أن يذهب لإنقاذ كورا. وأن تشينجاتشجوك سيمكث معه.

قال هوكاي: «حظًّا سعيدًا. أنت رجل شجاع، وأنا أحترم هذا.»

صافح أحدهما الآخر، ثم أومأ دانكن لديفيد، وغادر الاثنان المنطقة الآمنة عند الضفة الصغيرة. راقبهما هوكاي، ثم غادر مع أنكس أيضًا.

الفصل الرابع عشر

أنكس في الأسر

بعد مرور عدة دقائق من السير، شق ديفيد الطريق نحو الخيمة الرئيسية، وتبعه دانكن وفعل ما فعله ديفيد بالضبط. أمسك كل منهما بمجموعة من نبات الساسفراس، وجلس ديفيد في الزاوية. لكن قبل أن يجلس دانكن بجانبه التف حولهما الرجال الموجودون داخل الخيمة.

أشعل أحدهم مصباحًا، واستطاع دانكن رؤية وجوه الرجال الملتفين حوله بدقة أكثر. تطلع كل منهم في دانكن من أخمص قدميه حتى منبت شعره، وحدقوا في كل جزء منه جيدًا. تقدم نحوه عجوز أشيب الشعر وتحدث معه بلغة الهيرون، لكن دانكن لم يفهمه.

سأل دانكن: «هل يتحدث أي منكم الإنجليزية؟» لكن لم يجبه أحد، فسأل: «هل يتحدث أي منكم الفرنسية؟ لغة مونتكالم؟»

عم الصمت وقتًا طويلًا.

وأخيرًا قال العجوز بالفرنسية: «مونتكالم يتحدث إلينا بهذه اللغة، من أنت؟ لماذا أنت متنكر؟»

أجاب دانكن: «جئت لأرى هل هنا مرضى؛ فأنا طبيب.» ثم سأله: «عندما تقابل أناسًا ليسوا من قبيلتك، ألا تخلع ملابسك المصنوعة من جلد الجاموس كي تبدو مثلهم؟»

ضحك زعيم القبيلة ثم صفق، لكن قبل أن يجيبه دوت صرخات حادة قادمة من الغابة. فزع دانكن ووثب خوفًا، واندفع كل من بالخيمة إلى الخارج. كانوا مبتهجين لعودة المحاربين واحتفلوا بالنصر.

دفع الرجال دانكن حتى أصبح في منتصف دائرة. وتوهجت ألسنة النيران من حوله، ثم دفعوا برجل آخر، كان قد وقع في أسرهم، داخل الدائرة أيضًا، حتى أصبح وجهًا لوجه مع دانكن. لقد كان أنكس!

حاول دانكن ألا تبدو عليه الصدمة، فهو لم يرد أن يعرف أفراد قبيلة الهيرون أن هذا هو أنكس. كانت النساء تضايق أنكس، والرجال يسخرون منه. تألم دانكن لرؤية صديقه الأبي يلقى هذه المعاملة. ثم جذب أحد المحاربين ذراع أنكس وأجبره على الدخول إلى الخيمة، واقتيد دانكن أيضًا إلى الخيمة.

وقف رجل غريب بعيدًا عن الحشد، ولم يرغب دانكن في النظر إليه خشية أن يكون هوكاي، ولم يكن ليتحمل أن يرى صديقه في خطر. لكنه لم يكن هوكاي، فقد أدرك دانكن من ملبسه وقصة شعره أنه من الهيرون.

جلس زعماء القبيلة في أماكنهم داخل الخيمة الكبيرة المليئة بالدخان، ووقف باقي الرجال والنساء من حولهم. أما أنكس فوقف هادئًا أمامهم جميعًا.

خاطب زعيم القبيلة العجوز أنكس قائلًا: «أيها الغريب، لا يزال بإمكانك إثبات شجاعتك والنجاة بحياتك. سنعطيك اليوم راحة، ويمكنك تناول الطعام. وغدًا سنقرر مصيرك.»

نظر أنكس مباشرة إلى العجوز وقال: «لست بحاجة للطعام.»

تابع الزعيم كلامه: «هناك محاربان شابان من رجالنا يقتفيان أثر المرشد الآخر.»

قال أنكس: «لن يتمكن محارباك الشابان من القبض عليه أبدًا.»

قال الزعيم: «لقد تمكنا من القبض عليك.»

أجاب أنكس: «ها! إن محاربك المدعو «القصبة المرنة» جبان. كان يفر من ساحة القتال عندما قبض عليّ على حين غرة.»

عندئذ مر الزعيم أشيب الشعر بجانب أنكس ووقف أمام الغريب.

قال: «أيها القصبة المرنة، لقد جلبت لنا العار. لا أشك في صحة ما قاله ذلك الرجل؛ فأنت جبان. دعيت للحرب ثلاث مرات وهربت من ساحة القتال ثلاث مرات. ارحل ولا تعد إلينا مرة أخرى. لقد نسينا اسمك من تلك اللحظة.»

وقف الشاب ونظر إلى الزعيم العجوز، وترقرقت عيناه بالدموع وهو يدير ظهره ويغادر الخيمة، ولم يلتفت خلفه.

وعندما اتجه الجميع للخارج لمشاهدة القصبة المرنة وهو يغادر القرية، تسلل أنكس إلى جانب دانكن.

همس إليه: «هوكاي والجنرال مونرو بخير. لن يستطيع هؤلاء القوم إخافتي. اخرج بسرعة، قبل أن يرونا ونحن نتحدث.» ثم دفع دانكن تجاه الباب.

كانت النيران بالخارج تخمد، وأخذ رجال ونساء الهيرون يمرون جيئة وذهابًا. وكان دانكن يشعر بالذعر، لكنه دفع نفسه للبحث عن أليس في المعسكر. فتش في جميع الأكواخ، وكان يرفع البطاطين وينظر داخل الكوخ، لكنه لم يجد لها أثرًا. وأخيرًا عاد إلى الخيمة الرئيسية للبحث عن ديفيد؛ لعله يستطيع مساعدته في البحث.

كان أنكس لا يزال هناك، لكن ديفيد لم يكن موجودًا. استدار زعيم القبيلة إلى دانكن وقال: «أنت طبيب من الفرنسيين؟ إذن بمقدورك طرد الروح التي تسكن جسد إحدى نسائنا. إنها مريضة للغاية حتى إننا أبعدناها عن هنا، ووضعناها مع أسرانا في الكهوف.»

قال دانكن وهو يحاول إخفاء سروره بمعرفة مكان احتجاز الأسرى: «كل روح متفردة؛ وبعض الأرواح تفوق قوتها قدرتي على التعامل معها.»

قال الزعيم العجوز: «لكنك ستحاول.»

وقبل أن ينطق دانكن بكلمة واحدة، علت أصوات الناس داخل الخيمة مرة أخرى، فقد دخل ماجوا إلى الخيمة! لقد عاد. حياه الزعيم العجوز بحرارة وقال: «صديقي! هل عثرت على حيوانات الموظ؟»

قال ماجوا: «لم يحالفنا الحظ كثيرًا. دع القصبة المرنة يذهب، وسرعان ما سيعثر على تلك الحيوانات. إنه أفضل صيادينا.»

عم الصمت أرجاء الخيمة، ونكس المحاربون الأقوياء رءوسهم. ونهض الزعيم العجوز وقال: «ذلك الشخص مات في نظرنا، لقد نسينا أمره. لن يذكر أحد اسمه من تلك اللحظة.»

لم ينطق ماجوا بكلمة واحدة، لكن دانكن أدرك أنه غضب. وتابع الزعيم العجوز كلامه قائلًا: «لقد قبض المحاربون الشباب على أحد أعدائنا. انظر، لقد وقع في أسرنا.»

تفرق الناس ليكشفوا عن أنكس، الذي كان يقف في شموخ وقوة. حدق ماجوا وأنكس في عيني أحدهما الآخر لدقيقة، ثم كسر ماجوا حالة الصمت أولًا وقال: «إنه أنكس، آخر الموهيكان!»

بدأ الناس يتمتمون، وتردد اسم أنكس بين الموجودين داخل الخيمة.

قال ماجوا: «أيها الموهيكاني، سوف تموت.»

رد أنكس: «لن أموت على يدك الضعيفة.»

ازداد غضب ماجوا، ثم استدار إلى أفراد قبيلته وبدأ يتحدث. حكى لهم قصصًا عن أنكس الذي تسبب في أذى الكثير من أصدقائه المحاربين. وبعد أن انتهى رفع ماجوا فأسه وألقاها داخل الخيمة، فقطعت الفأس بعض الريش الموجود على رأس أنكس!

وثب دانكن ذعرًا، لكن أنكس لم يتحرك قيد أنملة؛ لقد وقف في صمت وهدوء كأنه حجر.

صاح ماجوا: «خذوه بعيدًا! احتجزوه هذه الليلة.»

قيد المحاربون الشباب يدي أنكس واقتادوه خارج الخيمة. والتفت دانكن إلى طريق الخروج، وأدرك أن الأمر لم ينته بعد. وغادر ماجوا بعد ذلك سريعًا.

مر الزعيم العجوز من جانب دانكن وأشار إليه ليتبعه. وبدلًا من أن يسير الزعيم نحو الأكواخ سار في الاتجاه الآخر، نحو قاعدة جبل مجاور. وقبل أن يصلا إلى الممر المؤدي إلى الكهف توقف دانكن.

كان دب أسود ضخم يقف أمامهما. زمجر الدب وحدق بزعيم القبيلة. للحظة، خشي دانكن ألا يسمح لهما الدب بالمرور إلى الداخل، لكنه تنحى عن الطريق. واستجمع دانكن كل شجاعته كي لا ينظر خلفه، وعلى الرغم من ذلك كان يشعر بالدب يسير خلفه. كان دانكن يوشك على الالتفات خلفه والصياح بشيء ما، لكن في تلك اللحظة فتح زعيم القبيلة بابًا مصنوعًا من لحاء الأشجار ودخل إلى الكهف.

استطاع دانكن رؤية الدب حينها؛ كان يسير بجانبه داخل الكهف! اقترب دانكن قدر استطاعته من زعيم القبيلة. وفي النهاية وصلا إلى الغرفة.

اندهش دانكن عندما رأى ديفيد يقف بجوار سرير وسط الغرفة حيث ترقد امرأة شابة مريضة للغاية. وأدرك دانكن أنه لا يستطيع عمل أي شيء لإنقاذها. شرع ديفيد في غناء أغنية جميلة. وجلس الدب في زاوية من الغرفة وأخذ يطن ويزمجر مع ألحان الأغنية على ما يبدو. أخافت الأصوات التي يصدرها الدب ديفيد كثيرًا حتى إنه توقف في منتصف الأغنية وصاح في دانكن: «إنها تنتظر منك أن ... أن تساعدها!» ثم أسرع خارج الكهف.

الفصل الخامس عشر

دانكن يقابل دبًّا

واصل الدب زمجرته، ثم راح يتدحرج فوق أرضية الكهف.

تقدم زعيم القبيلة للأمام وطلب من باقي الفتيات اللاتي يعتنين بالفتاة المريضة الانصراف.

قال للفتاة المريضة: «دعي هذا الرجل يساعدك.» ثم التفت إلى دانكن وقال: «سأتركك هنا، وأثق أنك ستفعل ما بوسعك لمداواتها.»

وجد دانكن نفسه وحيدًا مع الدب والفتاة المريضة المسكينة. اقترب الدب منه وجسده يهتز بالكامل. نظر دانكن حوله سريعًا بحثًا عن طريق للهرب، لكن لم يكن هناك مكان للهرب. هز الدب نفسه بقوة حتى إن دانكن لم يستطع التفكير فيما عليه فعله. وبعد ذلك سقط رأس الدب! لقد كان لباسًا تنكريًّا؛ كان هوكاي يرتدي فراء دب!

صاح دانكن: «يا إلهي! ماذا تفعل بحقك؟»

قال هوكاي: «تركت الجنرال وتشينجاتشجوك في كوخ عتيق مصنوع من فراء حيوان القندس، وهم في أمان من رجال الهيرون. ثم شققت طريقي أنا وأنكس إلى المعسكر الآخر، هل رأيته؟»

أجاب دانكن: «أجل، لقد قبضوا عليه. سيقتلونه غدًا، الأمر غاية في الخطورة!»

قال هوكاي: «آه، توقعت ذلك، لذا جئت إلى هنا. لا أستطيع أبدًا تركه يواجه ذلك المصير المشئوم.»

سأله دانكن: «ماذا حدث؟»

أجاب هوكاي: «ابتعد أنكس كثيرًا ولم أستطع مواكبته؛ كان سريعًا للغاية. وبعد ذلك اشتبك مع أحد رجال الهيرون، رجل جبان فر من المعركة، وقاد أنكس إلى كمين!»

قال دانكن: «لقد دفع ثمنًا غاليًا لركضه السريع. لكن كيف عثرت على هذا اللباس التنكري؟»

ضحك هوكاي وقال: «التقيت مصادفة بأحد رجال الهيرون كان يرتدي هذا للاحتفال. قيدته وأخذت منه ذلك الفراء لأستطيع المجيء للبحث عنك، ونتمكن معًا من إنقاذ أنكس وأليس.»

قال دانكن: «حسنًا، أنت تقلد الدب جيدًا!»

رد هوكاي: «من يستطيع أن يعيش في الغابات وقتًا طويلًا دون أن يتعلم كيف يتحرك الدب؟! هل حالفك الحظ في العثور على أليس؟»

هز دانكن رأسه وأجاب: «لقد فتشت كل الأكواخ في القرية ولم أجد لها أثرًا. توقعت أنها ستكون هنا.»

قال هوكاي: «سمعت ما قاله ديفيد؟ قال إنها تنتظرك.»

قال دانكن: «حسبته يتحدث عن هذه الفتاة المسكينة.» وأشار إلى الفتاة الراقدة فوق السرير.

قال هوكاي وهو يرتدي رأس الدب ثانية: «ربما، لكن هناك طريقة واحدة لنكتشف ماذا كان يقصد. سأتنكر في هيئة الدب ثانية، وسأتسلق لأعلى لأرى ما يمكنني اكتشافه.»

تسلق هوكاي جدران الكهف، كما تفعل الدببة. واستغرق بعض الوقت في التسلق، لكن عندما وصل إلى الأعلى نظر حوله جيدًا.

همس هوكاي: «أليس هنا، هناك باب آخر خلفك. إنها توجد خلف ذلك الباب.»

خطا دانكن نحو الأمام.

وأردف هوكاي: «أستطيع التحدث إليها، لكنني أخشى ترويعها إذا رأتني وأنا متنكر كالدب.» ثم ضحك وقال: «لا شك أنك أيضًا لا تبدو وسيمًا وأنت متنكر هكذا.»

سأله دانكن: «هل أبدو مخيفًا لهذه الدرجة؟»

أجابه هوكاي: «يمكنك أن تخيف ذئبًا على الأرجح. انظر، هناك ينبوع مياه، يمكنك غسل وجهك بالماء أولًا.»

استغرق دانكن عدة دقائق لإزالة تنكره، ثم أسرع عبر الممر إلى الباب الآخر. وفي غضون ذلك، تفحص هوكاي المخبأ السري لقبيلة الهيرون بحثًا عن مخرج آخر. وفي النهاية وصل دانكن إلى آخر غرفة داخل الكهف وفتح الباب الخشبي.

قالت أليس: «دانكن!»

أجابها: «أليس!»

قالت: «علمت أنكم ستأتون لإنقاذي! لكنك جئت وحدك؟»

أخبرها دانكن أنه جاء برفقة هوكاي وصاحبيه من الموهيكان لإنقاذها. قال لها: «علينا الآن أن نخرج من هنا، لكن لا بد أن تكوني غاية في الشجاعة. فكري في أبيك، وكم سيسعد برؤيتك.»

كانا يتحدثان بهدوء حين شعر دانكن بأحد يربت على كتفه، فالتفت، فرأى ماجوا يقف خلفه!

قالت أليس: «ماذا تريد؟» وطوت ذراعيها أمام صدرها. دفع دانكن نفسه أمامها وحدق في وجه ماجوا. في البداية، لم يتحرك أحد، ثم تحرك ماجوا خلف دانكن وأغلق الباب. لن يكون هناك مهرب.

قال دانكن: «بإمكانك احتجازنا رغمًا عنا، لكننا سنثأر منك. ستموت، على يدي!»

ضحك ماجوا وقال: «هل ستغضب كثيرًا غدًا عندما نعاقبك مع أنكس؟»

استدار ماجوا وكاد أن يغادر الغرفة حين أوقفته صرخة عالية. علم ماجوا أنها خدعة؛ فقد رأى ذلك الزي التنكري عدة مرات من قبل، لكن عندما حاول المرور من جانب الدب أطلق الدب صرخة غاضبة عالية أخرى. وقف الدب على رجليه الخلفيتين وحرك مخالبه الأمامية.

قال ماجوا: «خدع حمقاء، اذهب واعبث مع الأطفال.»

قفز الدب للأمام وأمسك بماجوا. وتصرف دانكن بسرعة وجلب حبلًا من الكهف وقيده به. أخذ ماجوا يقاومهما، لكن دون جدوى، فقد أحكم هوكاي ودانكن وثاقه جيدًا بالحبل.

خلع هوكاي سريعًا ملابس الدب، وعندما رآه ماجوا قال: «أنت!»

سأل هوكاي: «كيف دخل إلى هنا، أنا لم أره.» أشار دانكن إلى باب من خلفهم.

قال هوكاي: «أحضر أليس، علينا أن نرحل. سنخرج من ذلك الطريق ومنه إلى الغابة.»

قال دانكن: «لكن هذا الطريق خطير للغاية! ثم انظر.» وأشار إلى أليس التي فقدت الوعي، «إنها ليست بخير.»

قال هوكاي: «دثرها في هذه البطاطين، ستضطر إلى حملها. ليس أمامنا وقت لنهدره.»

حاول هوكاي ودانكن فتح الباب الذي دخل منه ماجوا، لكنه لم يتحرك ولو قليلًا.

سأل دانكن: «ماذا سنفعل الآن؟»

قال هوكاي: «علينا أن نسلك الطريق الذي جئنا منه.»

قال دانكن: «لكن زعيم القبيلة سيكون هناك، وسيسأل عن الفتاة المريضة.»

قال هوكاي: «عليك خداعه. أستطيع مغادرة الكهف وأنا متنكر.»

أومأ دانكن برأسه، واتجها نحو الممر المؤدي إلى الخارج. وضع هوكاي رأس الدب مرة أخرى وخرج من الكهف، ووجدا حشدًا من الناس يقفون بالخارج.

صاح زعيم القبيلة: «كيف حال الفتاة؟»

أجابه دانكن: «لقد طردت الروح الشريرة من جسدها، وهي عالقة الآن على الجدران، لكن علينا أن نحملها أنا والدب بعيدًا عن هنا. نحن بحاجة إلى أعشاب من الغابة لمساعدتها على الشفاء.»

قال الزعيم: «أجل، اذهب، سأدخل وأحارب الأرواح الشريرة الموجودة على جدران الكهف.»

صاح دانكن: «كلا، هل ترغب في أن تدخل هذه الأرواح إلى جسدك؟ هذا ما سوف يحدث إذا دخلت إلى الكهف. لا بد أن تنتظر هنا حتى تخرج الأرواح، وبعد ذلك يمكنك محاربتها.»

أومأ الزعيم برأسه وقال: «هذه نصيحة رائعة.»

وقف الرجال والنساء بجانب مدخل الكهف واستعدوا لمحاربة الأرواح الشريرة. وأومأ دانكن برأسه، ثم بدأ يركض بعيدًا بين الحشد، لكنه لم يعد إلى القرية. بل تبع هوكاي حول الأكواخ ومنها إلى الغابة.

أيقظ هواء الليل البارد أليس، وأخبرت دانكن أنها بحالة جيدة تسمح لها بالسير. وفي نهاية المطاف وصلوا إلى طريق، قال هوكاي: «هذا الطريق سيقودكما إلى جدول، سر على امتداد ضفته الشمالية، ثم اعبر الجبل واتجه نحو مخيمات قبيلة ديلاوير. قد يأخذونكما أسرى، لكنني أثق أن كورا محتجزة هناك. يمكننا أن نأتي لإنقاذكم ما إن نحرر أنكس. اذهب سريعًا الآن.»

وبينما كان دانكن وأليس ينطلقان في طريقهما التفت دانكن إلى هوكاي وقال: «حفظك الله يا هوكاي، وشكرًا لك!»

لوح لهما هوكاي بيده وتسلل إلى القرية مرة أخرى، ومر بكوخ غير مكتمل البناء، رأى أنه مكان اختباء جيد، فتسلل داخله. فوجئ هوكاي بديفيد داخل الكوخ يجلس فوق كومة من أوراق الشجر. وعندما رأى ديفيد الدب صرخ.

قال هوكاي: «ديفيد، إنه أنا هوكاي.»

سأله ديفيد: «هــ ... هــ ... هل تحولت إلى دب؟»

قال هوكاي: «إنه لباس تنكري. هل رأيت أنكس؟»

أجابه ديفيد: «لقد قيدوه بالحبال.»

سأله هوكاي: «هل تستطيع إرشادي إلى المكان الذي يحتجزونه به؟»

أومأ ديفيد برأسه إيجابًا.

قال هوكاي: «هيا بنا إذن!»

كانت الخيمة التي يوجد بها أنكس في منتصف القرية. تسلل هوكاي وهو متنكر في هيئة دب مباشرة بين الأكواخ، لكن الدخول إلى الخيمة أو الخروج منها كان أمرًا شديد الصعوبة. رأى المحاربون الأربعة الذين يحرسون الخيمة الدب، لكنهم لم يغادروا أماكنهم. زمجر هوكاي، وخطا ديفيد نحوهم.

قال ديفيد: «يرغب الدب في رؤية الأسير.»

لم يتحرك الحراس رغم ذلك. وزمجر هوكاي مرة أخرى ولوح بذراعه. قال ديفيد مرة أخرى: «ألم تسمعوني؟ الدب القوي يود رؤية الأسير؟»

في نهاية الأمر سمح الحراس لديفيد وهوكاي بالدخول إلى الكهف. كان أنكس جالسًا في ركن بعيد، ويداه ورجلاه مقيدة. انتصب واقفًا عندما رأى الدب، ورجع بظهره إلى الجدار، فأطلق هوكاي صافرة خافتة، فعرف أنكس أنه ليس دبًّا حقيقيًّا.

قال: «هوكاي!»

قال هوكاي لديفيد: «اقطع الحبال»، ففعل ديفيد ذلك سريعًا. وبينما كان ديفيد يحل وثاق أنكس خلع هوكاي ملابسه التنكرية.

قال أنكس: «انتظر، كيف سنخرج من هنا؟ ألن يكون من الأفضل أن تظل متنكرًا في هيئة دب؟»

فكر هوكاي لحظة ثم قال: «أجل، سأذهب إلى الخارج لجذب انتباههم، وفي غضون ذلك تتسلل أنت والعازف إلى الخارج.»

لكن عندما أمسك بزيه التنكري، عدل عن رأيه وقال: «كلا، تنكر أنت في هيئة الدب يا أنكس، وأنا سأتنكر في زي العازف. ديفيد، هل أنت شجاع بدرجة كافية لتبقى هنا وتجعلهم يظنون أنك أنكس، لدقيقة واحدة على الأقل؟»

أومأ ديفيد برأسه قائلًا: «أجل، بالطبع.»

وعندما غادر هوكاي كان ينفخ في الصافرة ويحرك ذراعيه مع الموسيقى، وسار في أثره أنكس، الذي كان متنكرًا في صورة دب، ولم يعرهما الحراس انتباهًا.

كان هوكاي وأنكس عند حدود الغابة عندما سمعوا الصيحة الأولى. قال هوكاي: «لقد اكتشفوا أنك لست بالداخل يا أنكس! هيا بنا!»

خلع هوكاي وأنكس ملابسهما التنكرية وانطلقا داخل الغابة. وعندما بدأ الحراس في الصياح خرج ما يزيد عن مئتي رجل مستعدين للقتال من أكواخهم من كل اتجاه بالقرية. وسرعان ما علم الجميع أن أنكس هرب، وامتلأت الخيمة الرئيسية بأناس يتساءلون عما سيحدث بعد ذلك.

صدرت الأوامر لبعض الشباب بتفتيش القرية سريعًا. وأحضر حارسان ديفيد إلى خيمة زعيم القبيلة. واكتشفوا أيضًا بحلول ذلك الوقت أن دانكن لم يداو الفتاة المريضة، وعثروا على ماجوا مقيدًا داخل الكهف.

وبعد أن اجتمع المحاربون كافة داخل الخيمة الرئيسية، تقدم ماجوا وتحدث: «لقد هرب الموهيكاني! من فعل ذلك؟»

قال زعيم القبيلة ذو الشعر الأشيب: «لا بد أنه هوكاي. المحاربون يقتفون أثره.»

صاح أهل القرية في غضب. وأرسل زعيم القبيلة المزيد من الرجال لاقتفاء أثر أنكس وهوكاي، فيما أمر ماجوا بعض الجواسيس بالذهاب إلى قرية ديلاوير وتفقد الأمر هناك. انطلق المحاربون في كل الاتجاهات، وعاد الآخرون إلى أكواخهم لنيل قسط من الراحة، إذ سيُستدعون قريبًا.

وقبل أن تشرق الشمس تمامًا دخل عشرون محاربًا كوخ ماجوا. كانوا مستعدين للقتال، ونهض ماجوا وسار إلى الخارج. اصطف الرجال خلفه، وشقوا طريقهم نحو الجدول الصغير.

مر ماجوا ورجاله بالماء دون أن يلحظوا وجود حيوان قندس يراقب تحركاتهم بدقة. كان ذلك القندس تشينجاتشجوك. راقب تشينجاتشجوك، من تحت فراء القندس الذي يحتمي داخله، كل خطوة يتخذها ماجوا ورجاله.

الفصل السادس عشر

أسرى ماجوا

كان كل شيء عاديًّا في قرية ديلاوير ذلك الصباح. فعندما وصل ماجوا إلى القرية كانت الشمس ساطعة في السماء. تجول في القرية وحيا الجميع بحرارة. ثم صافحه زعيم قبيلة ديلاوير.

سأله ماجوا: «هل تسببت أسيرتي في أي متاعب لكم يا تامينوند؟»

أجابه زعيم القبيلة: «لم تتسبب في أي متاعب، إنها مع باقي السجناء.»

سأل ماجوا: «هل وفقتم في الصيد؟»

أجابه الزعيم: «أجل، كثيرًا.»

قال ماجوا: «لقد أحضرت معي بعض الهدايا.» ثم أعطاه بعض المجوهرات التي أخذها من كورا وأليس.

قال تامينوند: «شكرًا لك. أنت محل ترحاب هنا.»

قال ماجوا: «هناك رجل بينكم ألحق الأذى بأفراد قبيلتك. ندعوه هوكاي. ربما يكون مختبئًا مع باقي السجناء.»

سأله تامينوند: «لماذا يلحق الأذى بأفراد قبيلتي؟»

أجابه ماجوا: «لطالما كان هوكاي عدوًّا لقبيلتك، إنه يقتل الناس دون أي اعتبار للشرف.»

عندئذ نهض تامينوند، ونادى على أفراد القبيلة، الذين بدءوا في التجمع في الخيمة الرئيسية. أخبر زعيم القبيلة الناس بالأنباء المروعة؛ إن هوكاي كان يقتل ذويهم.

في غضون ذلك وقفت كورا بجانب أليس وسط مجموعة السجناء، ووقف دانكن خلفهما مباشرة. كان هوكاي محقًّا، فقد احتجزهم أفراد قبيلة الديلاوير، دون أن يلحقوا بهم الأذى. وقفت مجموعة السجناء وأحاط بهم المحاربون من كل اتجاه.

تقدم تامينوند وقال: «من منكم هوكاي؟»

لم يجب دانكن أو هوكاي، الذي وقف على مقربة منه. كان هوكاي قد تسلل إلى مخيمات ديلاوير في ساعة مبكرة ذلك الصباح. أما أنكس فلم يكن هناك؛ كان مختبئًا في الغابة.

نظر دانكن حوله ورأى ماجوا؛ فأدرك على الفور أن ماجوا أخبر تامينوند بقصص كاذبة.

قال هوكاي: «أنا من تبحث عنه، أنا المدعو هوكاي.»

قال دانكن: «كلا، أنا هوكاي، قد لا أبدو كالمرشدين، لكنني أؤكد لك أنني هوكاي.»

أخذ زعيم القبيلة ينظر إلى دانكن وهوكاي في حيرة من أمره لأن الاثنين يزعمان أنهما هوكاي.

قال تامينوند: «يقول أخونا ماجوا إن شخصًا خائنًا تسلل إلى مخيمنا.» ثم استدار إلى ماجوا وسأله: «أي منهما هوكاي؟»

أشار ماجوا إلى هوكاي.

صاح دانكن: «أتصدق ذئبًا مثله؟»

استدار زعيم القبيلة إلى دانكن قائلًا: «تبدو كجندي أكثر مما تبدو مرشدًا. أستطيع تبين ذلك بوضوح الآن. هذا الرجل هو هوكاي.»

وأشار إلى هوكاي الذي كان يقف خلف دانكن مباشرة وقال: «سنستمع إلى ما سيقوله ماجوا.»

برز ماجوا من بين الحشد، وتطلع إلى جميع السجناء جيدًا. ثم بدأ يتحدث. كان كلامه مقنعًا، لكن زعيم القبيلة أراد معرفة سبب حضور ماجوا. أجابه ماجوا: «العدالة؛ تحتجز قبيلة الديلاوير سجناء ألحقوا الأذى بأشقائي.»

أومأ تامينوند قائلًا: «العدالة مهمة؛ خذ أسراك وارحل. لا نحتاج إلى سماع خطبة أخرى.»

خرج خمسة من المحاربين الموالين لماجوا من بين الناس وأمسكوا بدانكن وكورا وهوكاي وأليس.

صاحت كورا: «انتظر! أنت زعيم طيب وعادل يا تامينوند، رجاءً لا تصدق أكاذيب هذا الرجل.» وجثت على ركبتيها وأردفت: «إذا تركته يأخذنا فستعرض حياتنا لخطر كبير.»

نظر تامينوند إلى الشابة الجميلة نظرة حنونة. قالت كورا: «لا أطلب منك إنقاذي، لكن أنقذْ شقيقتي، فهي ابنة رجل مسن. لا تسمح لهذا الوحش أن يأخذها منه، ألست أبًا؟ ألا تتفهم ما أقوله؟»

قال تامينوند: «أنا أب لهذا الشعب.»

قالت: «إذن، رجاءً استمع إلى شخص من قبيلة أخرى وهو يتحدث عنا. لعله يوضح لك الحقيقة قبل أن تسمح لماجوا بأن يأخذنا معه.»

أومأ تامينوند وقال: «دعوه يحضر.» وقفوا في انتظار أنكس، لكن لم يكن هناك سوى صوت الرياح التي تتخلل أوراق الأشجار.

بعد مرور لحظات حضر أنكس إلى منتصف الدائرة. تقدم ببطء، ثم جلس أمام تامينوند. تحدثا معًا وقتًا طويلًا، لكن لم ينجح أنكس في إيضاح كل ما حدث للزعيم العجوز. اندلع شجار، وبمحض الصدفة مزق بعض رجال تامينوند قميص أنكس.

توقف الرجال عن القتال ما إن رأوا وشمًا لسلحفاة صغيرة بجسد أنكس، وهو رمز لقبيلة الموهيكان.

سأله تامينوند: «من أنت؟»

أجاب أنكس: «أنا أنكس، ابن تشينجاتشجوك.»

قال تامينوند: «مستحيل! هل هذا أنت حقًّا؟ ابن الموهيكان العظيم هنا؟ أنكس، يجب أن تخبرنا بحقيقة ما حدث. لقد ظننا أن الموهيكان ماتوا جميعًا.»

أومأ المحارب الشاب، وأخبر الزعيم العجوز بكل شيء عن هوكاي، وعن وقوفه بجانبه وبجانب أبيه. ثم تحدث معه عن ماجوا وأخبره بما فعله مع كورا وأليس من أشياء مروعة.

وفي النهاية أقنع تامينوند بإطلاق سراح دانكن وأليس وهوكاي. لكن ماجوا رفض أن يرحل دون أن يأخذ معه كورا. وقال تامينوند إن ذلك ثمن زهيد مقابل أن يعم السلام.

قال هوكاي: «كلا ...» وتقدم للأمام مردفًا: «خذني أنا معك بدلًا من الفتاة.»

تردد ماجوا دقيقة، ثم قال: «وماذا سأفعل بك أيها المرشد العجوز؟» ثم جذب كورا إليه وخرج بها من القرية. وراقبت القرية بأسرها ماجوا وكورا وهما يختفيان داخل الغابة.

بعد أن اختفى ماجوا وكورا عن الأنظار غادر أنكس الحشد ودخل إلى الخيمة ليفكر. وبعد مرور ساعة تقريبًا خرج وهو يصيح بصوت عال وألقى بفأسه نحو شجرة.

ألقى أنكس خطبة رائعة، وأقنع العديد من محاربي قبيلة الديلاوير بالقتال إلى جانبه هو وهوكاي. اصطحب معه اثنين من أفضل مرشدي الديلاوير، وأمر باقي المحاربين بانتظار تعليماته بالقرية.

انضم دانكن إلى هوكاي، بعد أن وعد أليس بأنه سيحافظ على نفسه. تسللت المجموعة الصغيرة في بطء داخل الغابة، وكانت تسير في حذر كي لا تصطدم بجواسيس قبيلة الهيرون. وسرعان ما عثروا على مخيمات الهيرون وكانوا على وشك إطلاق النيران لكن هوكاي قال: «انتظروا! إنه ديفيد جاموت، العازف.»

وعندما اقترب ديفيد نحوهم أسرع هوكاي إليه وساعده حتى وصل به إلى مكان آمن.

سأله هوكاي: «كم عددهم هناك؟»

أجابه ديفيد: «هناك أعداد كبيرة منهم. وماجوا هناك، ومعه كورا. تركها داخل كهف.»

قال هوكاي: «داخل كهف! قد تكون هناك فرصة لإنقاذها.»

جلس أنكس وهوكاي ليفكرا معًا ويخططا للهجوم على ماجوا ورجاله.

شقت مجموعة محاربي قبيلة ديلاوير إلى جانب دانكن وديفيد طريقهم في الغابة. ووصلوا إلى جدول صغير، وسأل هوكاي هل يعلم أي من المحاربين الشبان إلى أين يؤدي هذا الجدول. قال أحدهم إنه يؤدي إلى الجبال.

فقال هوكاي: «ظننت ذلك أيضًا، سنتبعه حتى نجد أثرًا لماجوا.»

أخذ هوكاي ديفيد جانبًا وقال: «هؤلاء محاربون، استعنا بهم لمساعدتنا في هذه الرحلة. أرى أنه من الأفضل لك أن تمكث هنا وتكون بأمان.»

لكن ديفيد قال: «أشعر في قرارة نفسي أنني أود مساعدة كورا، إنها حنونة وطيبة، وسأكون سعيدًا إذا حاربت من أجلها.»

أومأ هوكاي برأسه وقال: «حسنًا، لنذهب.»

اختبأ الرجال خلف الشجيرات الكثيفة أثناء تقدمهم. واضطروا إلى الزحف على أياديهم وأرجلهم، والزحف على بطونهم. وتوقفوا كل بضع دقائق للاستماع إلى الأصوات بالغابة. شقوا طريقهم إلى النهر دون أن يراهم أحد.

قال هوكاي: «لم يتبق هنا سوى القليل من الأشجار الحية. لا بد أن حيوانات القندس تسببت في ذلك. لم يعد لدينا غطاء، علينا توخي الحذر.»

كان هوكاي محقًّا، فقد كانت هناك سدود بنتها حيوانات القندس وبرك صغيرة في كل مكان. كانت الأشجار الهالكة ملقاة في كل اتجاه. سمعوا صوت فرقعة عالية، فأحنوا رءوسهم جميعًا.

همس هوكاي: «توخوا الحذر يا رجال.»

دوت صيحة عالية في السماء، صدرت من مجموعة صغيرة من مرشدي الهيرون! لقد رأوا هوكاي ورجاله وأسرعوا عائدين إلى معسكرهم.

صاح هوكاي: «هجوم!» وانطلق هو ودانكن والمحاربون. اندلعت معركة ضارية، وفي غضون دقائق تقاتلوا رجلًا لرجل، وتشابكوا بالأيدي! وفجأة، ظهر تشينجاتشجوك والجنرال مونرو، وقاتلوا إلى جانبهم.

لم يستطع ماجوا ورجاله المنكسرون الصمود أمام محاربي الديلاوير والجنود الإنجليز والموهيكانيين الشجاعين؛ فانسحبوا!

أصيب العديد من محاربي قبيلة ديلاوير، لكنهم انتصروا في الجولة الأولى. وبعد استراحة قصيرة هجم هوكاي ورجاله ودارت معركة ثانية.

وبينما قاد تشينجاتشجوك مجموعة من المحاربين في اتجاه، سلك هوكاي وأنكس اتجاهًا آخر. وسرعان ما وصلا إلى منتصف معسكر الهيرون.

وفجأة رأى أنكس ماجوا وهو يفر، فطارده. راقب هوكاي أنكس وهو يركض كالريح، فركض خلفه. وعندما كاد هوكاي أن يدركهما كان أنكس قد سقط قتيلًا. وإلى جواره المسكينة كورا؛ قتلهما ماجوا.

رأى هوكاي ماجوا وهو يحاول الفرار، فطارده وبداخله بركان غضب لم يشعر بمثله من قبل. وفي النهاية أمسك هوكاي بماجوا أعلى قمة جبل. دارت معركة بينهما، وفي غضون لحظة تمكن هوكاي منه، وبدفعة أخيرة سقط ماجوا من فوق جرف، ولقي حتفه.

الفصل السابع عشر

الموهيكان الأخير

حلقت مئات الغربان فوق الأشجار عاليًا، وساد الحزن بين الناس. لم تُسمع أغاني النصر في ذلك اليوم. وقف جميع أفراد قبيلة ديلاوير في دائرة في منتصف القرية؛ كانوا يقيمون شعائر جنازة كورا وأنكس.

وقف تشينجاتشجوك شامخًا. بدا حزينًا، لكنه كان فخورًا بابنه الشجاع. وغنى ديفيد ترنيمة تردد صداها بين الأشجار. وبكى الجنرال مونرو علانية بلا خجل، وحاولت أليس مواساته، ثم قادهما دانكن بعيدًا؛ لقد حان وقت العودة إلى الوطن.

التفت تشينجاتشجوك إلى هوكاي وقال: «صرت الآن وحيدًا.»

وضع هوكاي يده على كتف تشينجاتشجوك وقال: «لست وحيدًا يا تشينجاتشجوك. صحيح أن أنكس رحل، لكنك لستَ وحيدًا.»

ونكس الرجلان رأسيهما وبكيا.